# الفسيفساء والزخرفة العربية الإسلامية

الدكتور المهندس حسان فائز السراج

لم يمضِ على ظهور الإسلام في الجزيرة العربية قرن من الزمان حتى كان العرب المسلمون يحكمون أقطاراً تَمتد بين الصين شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً، وبين وسط آسيا شمالاً وبلاد الهند وإفريقيا جنوباً، وفي تلك الأثناء نبت في هذه الأقطار فن جديد، جذوره العروبة والإسلام؛ وسقياه من فنون شعوبها، ولم يلبث هذا النبت أن استوى فناً إسلامياً رائعاً، قُدر له أن يكون من أطول الفنون عمراً ومن أوسعها انتشاراً، فنٌ ازدهر في شتى المجالات سواء في العمارة أو في الفنون الزخرفية والتطبيقية وفي الفنون التشكيلية بمختلف جوانبها. فنٌ تميز بالحيوية والتفاعل مع غيره من الفنون تأثراً وتأثيراً. فن يتسم بخاصية التنوع في الوحدة.

عندما انتشرت حضارتهم بفتحهم البلاد في المشرق والمغرب، كانت ( العمارة ) أعظم مظاهر هذه الحضارة، ذلك التقديم بما شيده الخلفاء، وما أقاموه من مدن ومساجد وقصوروحدائق وقلاع وحصون وأسوار. وكان الفن الإسلامي من أبدع وأدق وأروع الأمثلة الذي سار بها جنباً إلى جنب، مع العمارة الإسلامية في المساجد كالمسجد الأقصى والمسجد الأموي وغيره من المساجد والقصور، مثل قصر أشبيلية وقصر الحمراء بغرناطة وأعمدة هرقل في الأندلس وغير ذلك من الروائع والتحف، وعلى ذلك يحق لنا أن نقول أن الإهتمام بالعمارة العربية الإسلامية معناه الإهتمام بالماضي ليمكننا من توجيه الحاضر إلى المستقبل السليم، وإن ما بناه

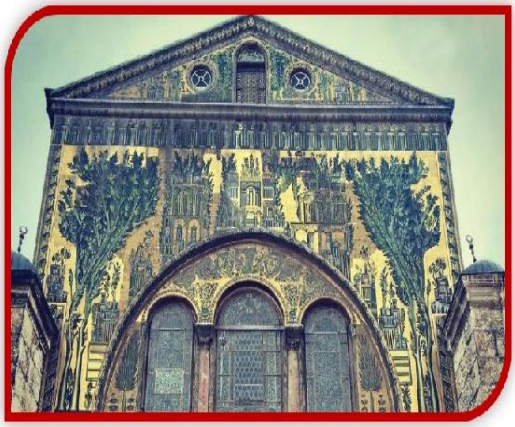

العرب وما خلدوه من أمثلة رائعة في مصر في القرن السابع إلى القرن الثامن عشر تعتبر فترات مميزة وخالدة في تاريخ العمارة العربية الإسلامية، ولكي يتتبع الباحث التطورات التي مرت بالعمارة العربية الإسلامية، والحقائق التي كان لها أكبر الأثر في تكوين الطرازالعربي الإسلامي، الذي تركز وأخذ طابعاً خاصاً به فريداً في نوعه وفنونه الأخاذة بفنها وجمالها ، ونراه خاصة في منتصف القرن السابع الميلادي بعد وفاة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام عام ٦٣٢ م، وبعد أن انتشر الدين الإسلامي من المشرق للمغرب، فغزا الخلفاء البلاد المتاخمة لأرض الكنانة وغزوا الشام والعراق وفلسطين ومصر وفتحت أمامهم كنوز الفنون البيزنطية والرومانية والفارسية والمصرية، واقتبسوا من تلك الفنون ما لاءمهم، ولذا أخذ الطراز العربي يحدد مكانه ويأخذ مكانته، ولقد تحولت

بعض الكنائس إلى مساجد وخاصة في الشمال، وزودت هذه الكنائس بإنشاء قبلة تواجه مكة المكرمة، وأنشئت المساجد في الكوفة والبصرة وغيرها من الأقطار الإسلامية.

ومما هو جدير بالذكر أن نشير إلى العمارة الإسلامية في مصر وسوريا في ذلك الحين أيام أن كانت دمشق عاصمة الدولة الأموية حيث نجد أن أهم أثارها قبة الصخرة في بيت المقدس التي بناها عبد الملك بن مروان عام ٦٨٨ م، ثم الجامع الأموي بدمشق ٧٠٥ م الذي أقامه الوليد بن عبد الملك، حيث تفنن كل منهما في كساء الحوائط الداخلية والخارجية بالنقوش البديعة والألوان الزاهية الجميلة الرائعة ببلاط القيشاني أو الفسيفساء – الكاش الفرفوري – كما يسمى في العراق، وفي عهد الدولة الطولونية بعد ذلك تفوق المصريون أيام أحمد بن طولون في هذا المضمار وكان مسجده العالمي المشهور أكبر دليل على هذا التقدم، وقد ترك الفاطميون بمصر كثيرا من المساجد وغيرها من التحف الفنية النادرة، حيث كان عصرهم من عصور الإسلام الذهبية، كما هوعصر للنهضة بالعمارة الإسلامية، ومن آثارهم الخالدة جامع الأزهرالشريف الذي يعتبر أقدم جامعة إسلامية في العالم، أما المماليك فجعلوا من القاهرة مدينة السحر والخيال، حتى وصفت القاهرة حينذاك بأنها أكبر متحف يحوي أكثر عدد من الآثار الإسلامية، وأعظم مبانيهم ( جامع السلطان حسن ) بجوار القامة ( وجامع قايتباي ) الذي يلقب بالدرة اليتيمة في العمارة الإسلامية، وفي عام ٧٥٠ م حدث انقلاب تاريخي عظيم الأثر وهو زوال الدولة الأموية وظهور الدولة العباسية التي أنشأها المنصور عام ٧٦٢ م، حين اتخذ بغداد عاصمة لملكه ومقرا للخلافة ويشبه هذا الإنقلاب انتقال العاصمة الرومانية إلى القسطنطينية، وعلى ذلك زال التأثير البيزنطي عن العمارة الإسلامية وحل محله التأثير الفارسي، وفي ذلك العصر بني مسجد بغداد كما أدخل على الطراز العربي العقد المخموس وأعمال الفسيفساء.

وهذا الفن الإسلامي هو موضوع محطتنا التي تمثل تسليط الضوء الأول من نوعه في هذا المجال، وكما يرى الباحثون بالعمارة والآثار والفنون الإسلامية من خلال دراسة تاريخ العمارة، بتقديم دراسات عن الفن الإسلامي ومدى انتشاره، ومختلف جوانبه، وأصوله وأثر العروبة والإسلام في نشأته، ودحض الآراء التي تنكر فضل الإسلام في تكوينه وصدى القرآن الكريم في الزخرفة الإسلامية، كما تتمثل في قبة الصخرة، والمسجد الأموي والعصور الأموية في صحراء الشام.

وأثر طابع الإبهار في الفن الإسلامي في عصر الحروب الصليبية وأهميته في تحقيق النصر، ودور المرأة في الفن الإسلامي وضرورة العناية بتنمية ثقافة الطفل عن طريق توعيته بالتراث، وتطوير فن إسلامي حديث يجمع بين

التراث والحداثة، والتأثيرات الفنية المتبادلة بين الشعوب الإسلامية، ومن هذه الفنون التي نسلط الضوء عليها، فنون الزخرفة بأنواعها الخطي والنباتي والهندسي، وآثارها على فن العمارة من حيث الحضارة والتطور، والارتقاء بفنون الزخرفة، التي تميزت بتفوق المهرة المسلمين بشكل ملحوظ في مجالها، وابتكاراتهم أشكالاً زخرفية ذات طابع إسلامي متميز، واستنباط الفنان من الطبيعة أشكالاً زخرفية مثل زخرفة الأقمار والسحب وموج البحر وقشر السمك، وجوانب أخرى من الفنون الزخرفية والتطبيقية، من سجاد ونسيج وخزف ومعادن ومسبوكات وزجاج وبلور صخري وأخشاب وعاج، بالإضافة إلى الخط العربي بكافة مجالاته المختلفة عنه، وأنواعه وجمالياته، وخط المصاحف والكتابات الأثرية، وأثر الخط العربي في الفنون الأوروبية، والكتابات العربية التي ترجع إلى ما قبل الإسلام، كما عن الخط القرآني، وخاصة خط المصاحف وانتشاره على طول طرق الحرير وآسيا الوسطى والصين،

ونتطرق في حديثنا اليوم على نوع من أنواع الزخرفة الإسلامية في تاريخنا الحافل بأجمل الفنون العربية والإسلامية، ويطلق مصطلح الزخرفة العربية ( أرابيسك ) على الفن العربي الذي يقوم على نماذج معقدة للتزيين، ويتميز بزخارفه المتداخلة والمتقاطعة التي تمثل أشكالا هندسية يغلب عليها الطابع النباتي من زهور وأوراق وثمار، هذا الفن بالتحديد تميز به الفن الإسلامي والذي ظهر في تزيين السيراميك وفي العمارة الإسلامية التي انتشرت في أوروبا ولاقت رواجا كبيرا في فترة القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وقد ظهر هذا الفن في بداياته علي يد الفرس والأندلسيين ولاسيما في الأعمدة ونصف الأعمدة المربعة وفوق الجدران وعلى الأسقف، وإلى جانب العمارة وصفت الزخرفة بأنها لغة الفن الإسلامي، حيث كانت تقوم على تزيين المساجد والقصور والقباب

بأشكال هندسية أو نباتية جميلة تبعث في النفس الراحة والهدوء والانشراح وسمي هذا الفن الزخرفي الإسلامي في أوروبا باسم أرابسك بالفرنسية arabesque وبالأسبانية ( ataurique ) أي التوريق، وقد اشتهر الفنان المسلم بالفن التجريدي surrealism abstract حيث الوحدة الزخرفية النباتية كالورقة أو الزهرة، وكان يجردها من شكلها الطبيعي حتى لا تعطي إحساسا بالذبول والفناء، ويحورها في أشكال هندسية حتى تعطي الشعور بالدوام والبقاء والخلود، ويقع تحت عنوان الزخرفة العربية فن الزخرفة بالفسيفساء الذي اشتهرت به العديد من الدول العربية والإسلامية، ومنها الفسيفساء الموجودة في الجامع الأموي في دمشق في سوريا، ومدينة كربلاء في العراق المشهورة في عمله وتصنيعه الفسيفساء، وتعتبر فسيفساء امفيتياسمي رؤوف أحد أقدم الفنون التصويرية التي تعطينا خلفية واضحة عن تجليات الحضارة الإسلامية في عصورها المزدهرة. ذلك الفن الذي اهتم بتفاصيل الأشياء والخوض في تلافيف أعماقها، نافذاً من خلال المواد الجامدة إلى معنى الحياة. إنه فن التلاحم والتشابك الذي عبر في دلالاته عن أحوال أمة ذات حضارة قادت العالم إلى آفاق غير مسبوقة من العلم والمعرفة. واستطاع الفنان المسلم بأدواته الخلاقة أن يترجم لنا فلسفة هذه الحضارة في ألوان متعددة من الفنون الجمالية الراقية، التي يقف الفسيفساء في قمة هرمها متربعاً على عرش الصورة الفنية المتكاملة، عبر قطع مكعبة الشكل لا يتعدى حجمها سنتيمترات من الرخام أو الزجاج أو القرميد أو البلور أو الصدف. وهو باختصار حجر ناطق يروي حكايات الماضي العتيق، حكايات صاغتها أيدي الصناع المهرة على الجدار والقباب والأرضيات وغيرها، فروت ماضيهم، وكيف أن إبداعهم تجاوز حدوده، وأنطق الحجر فجمل المساجد والقصور والحانات. وتتألف اللوحة الفسيفسائية عادة من انتظام عد كبير من القطع الصغيرة الملونة التي تكون بمجملها صورة تمثل مناظر طبيعية أو لوحات بشرية أو حيوانية. وهي حتى الآن مازالت تتعايش مع مثيلاتها من خزف ورخام. والعصر البيزنطي هو عصر الفسيفساء، فهو فن العصور الإسلاميه، وفن ما قبلهم من الرومان والبيزنطيين، ولكن أول من أشاع استعماله هم الرومانيون في القرن الأول قبل الميلاد باللون الأبيض والأسود، فبرعوا بتصوير حياة البحر والأسماك والحيوانات، أما العصر الذهبي للفسيفساء فكان العصر البيزنطي لأنهم ادخلوا في صناعته الزجاج والمعادن، وقد أبدع فيها المسلمون، وهم أخذوه من حضارات سبقتهم، لكنهم طوروا هذا الفن وتفننوا به وصنعوا منه أشكالاً رائعة جداً في المساجد من خلال المآذن والقباب وفي القصور والنوافير والأحواض المائية .الخ لكن هذا الفن العريق عاد للظهور من جديد بصورة حديثة تواكب العصر، ولعل أبرز ما دفع الناس للعودة إليه هو روعة هذا الفن، فضلاً عن البحث دائماً عن التجديد في مناجم التراث القديم

والحضارات القديمة. والتي مهما تطورنا وتقدمنا نحب بل نجبر أحياناً للعودة إليها. فظهر فن الفسيفساء في المنازل والقصور والأسواق الحديثة في أحواض السباحة، وفي الحمامات وفي أشكال رائعة من اللوحات الجدارية الضخمة. فتاريخ الفسيفساء في بلاد الشام يعتبر أن فن الفسيفساء واحد من أقدم الفنون التزينية في منطقتنا، إذ تمتد جذوره بحسب الإكتشافات الحديثة إلى الألف الثالث لما قبل الميلاد، وكان لتتابع الحضارات في هذه المنطقة تأثير كبير عليها حيث أضاف إليها أشكالا وأنماطا مختلفة أكسبته شهرة عالمية واسعة، والفسيفساء الإسلامية قد مر بمراحل عديدة، حتى بلغ قمته في العصر الإسلامي التي تعطينا خلفية واضحة عن تجليات الحضارة الإسلامية في عصورها المزدهرة، ذلك الفن الذي اهتم بتفاصيل الأشياء والخوض في تلافيف أعماقها، نافذاً من خلال المواد الجامدة إلى معنى الحياة، لكن هذا الفن العريق عاد للظهور من جديد بصورة حديثة تواكب العصر، ولعل أبرز ما دفع الناس حتى مع تطورنا وتقدمنا نحب بل نجبر أحياناً للعودة إليها فظهر فن الفسيفساء في المنازل والقصور والأسواق الحديثة في أحواض السباحة في الحمامات وفي أشكال رائعة من اللوحات الجدارية الضخمة، واكتشفت في الوركاء في بلاد الرافدين جدران مكسوة بالفسيفساء منذ فجر التاريخ، مؤلفة من أسطوانات ملونة مرصوفة مع بعضها تشكل زخرفة مسننة، وقد تتكون هذه الأسطوانات التي لا يتجاوز قطر الواحد منها ثلاثة سنتمترات من الآجر أو من الرخام، إضافة إلى فسيفساء غير منتظمة تعود إلى مصر القديمة وفارس، إلا أنه ثمة معامل لإعداد الفصوص الزجاجية كانت موجودة محلياً يتولاها صناع من أهل البلاد، ومن أشهر الفسيفساء الإسلامي في المنشآت الأموية الأولى، مثل المسجد الأقصى، وقد تجددت فسيفساؤه، ومسجد قبة الصخرة الذي مازال محتفظاً بفسيفسائه الداخلية إلا أن فسيفساءه الخارجية زالت وحل محلها ألواح الخزف، أما الجامع الأموي الكبير بدمشق فلقد كانت الفسيفساء شاملة الجدران جميعها في الحرم وفي أروقة الصحن، ثم سقط أكثرها بسبب ما أصاب الجامع من زلازل وحرائق، وأعيد ترميم بعضها، وتمثل فسيفساء مسجد قبة الصخرة عناصر زخرفية ونباتية، أما فسيفساء الجامع الأموي الكبير فهي تمثل مجموعات من البيوت الافتراضية والأشجار والجسور، واعتقد المؤرخون أنها تمثل الفردوس الذي وُعد به المؤمنون، وقد حفل قصر هشام بن عبد الملك والمسمى قصر الفجر قرب أريحا بروائع الفسيفساء التي تمثل أشكالاً نباتية أو تجريدية، فقد اكتشف العديد من لوحات الفسيفساء الرائعة في مدن كثيرة مثل ماري وشهبا وإنطاكية والسويداء وتدمر وحماة وحلب وقد نقل بعض منها إلى المتاحف المحلية والعالمية ومنها ما بقى في مكانه الأصلي بعد أن رمم وحفظ ليبقى لأجيال وأجيال شاهداً على عظمة الفنون وحضارة هذه البلاد،

وللفسيفساء أهمية خاصة في تاريخ الفن والعمارة، فله تعريفات ومصطلحات وجوانب أخرى، فمصطلح الفسيفساء يعود في أصوله إلى الكلمة اليونانية muses والتي يقصد بها آلهة الفنون والجمال والإلهام الفني التسعة اللواتي رافقن الإله أبوللو واللواتي ارتبط اسمهن لفظيا بين الكلمة mosaic والتي تعني الفسيفساء الطرشان، وقد وصلت هذه الكلمة إلى اللغة العربية على اسم psephos والتي عربت لاحقا لتصبح fass وقد عرف هذا الفن لدى اليونان باسم tessera technique وهذه الكلمة لاتينية الأصل وتعني مكعب cubes أو dices وهي الأشكال المكعبة والمنتظمة والتي قطعت من الحجارة أو الزجاج كما وأطلق على الفسيفساء أيضا مصطلح opus tesselatum إذا كانت المكعبات منتظمة، وأطلق عليها اسم opus vermiculatum إذا كانت المكعبات غير منتظمة الطرشان عام ١٩٨٥، وكذلك تم له اكتشافات أثرية، في عام ٢٠١٢ م، حيث اكتشف علماء آثار من جامعة نبراسكا، لنكولن فسيفساء عملاقة وحمام آثري في تركيا تعود للعصور الرومانية القديمة، وتعد هذه الفسيفساء هي الأكبر التي تم العثور عليها في المنطقة واكتشافها يغير الاعتقاد بتاريخ هذه المنطقة، وقد فوجئ فريق التنقيب وجود الفسيفساء بهذا الحجم وهذه النوعية، وقد وجد أيضاً المنقبون بالمنطقة اسواق وشوارع وحمامات قديمة ومقابر ومعابد، وقد لاحظ فريق العمل وجود فسيفساء عام ٢٠٠١ ولم يكن معلوم لديهم حجم الفسيفساء وفي ٢٠١١ م. دعا رئيس الفريق للعودة والبحث والمحافظ عليها، وتكشف التنقيبات بالمنطقة المزيد من الأدلة عن وجود الامبراطورية الرومانية وفهم تواجدها هناك، وظهور الأحرف اللاتينية بالاكتشافات.

ولفن الفسيفساء ظاهرة جميلة تميزت بانتشاره على مستو عال في أحقاب وعصور مختلفة، حيث انتقل فن الفسيفساء إلى الأندلس، وبدا في القسم الثالث من الجامع الشهير الذي أنشأه الحكم الثاني، ويشاهد فيه قباب مصلية المحراب، وثمة فسيفساء متأخرة، يطلق عليها اسم «المشقف» وتتألف من فصوص حجرية ملونة هندسية التشكيل مؤلفة نسيجاً نجمياً هندسياً يشاهد في الزخارف الشامية. وتنتشر فسيفساء مماثلة في المغرب وتونس، ولكنها من فصوص جصية.

وفي العصر الحديث ثمة عودة إلى استغلال الفسيفساء في تنفيذ لوحات فنية كبيرة لتزيين الجدران العامة أو المباني مع استعمال الفصوص الحجرية أو الفصوص الزجاجية، ومن أضخم الألواح الفسيفسائية المعاصرة وأكثرها غزارة اللوحة التي تزين واجهة مكتبة مكسيكو للفنان غورمان Juan O'Gorman في عام ١٩٥٢. وتمثل تطور الإنسان من عصر الأزتيك وإلى اليوم رممت الفسيفساء الموجودة في البلاد العربية، وحفظ بعضها في

المتاحف، مثل متحف باردو في تونس، ومتحف الإسكندرية، وفي سوريا خصص للفسيفساء متحف معرة النعمان وخان عثماني ضخم، ومتحف أفاميا في خان مماثل، عدا الموجود في متاحف دمشق وحماة والسويداء وفي متحف شهبا، حيث عثر على دارة villa رومانية أرضيتها مشاهد فسيفسائية رائعة رممت في مكانها الذي صار متحفاً.

.